إمكانية تحقيق السعادة

الحياة أشبه بنهر يجري دائما، وأحداث الحياة لن تتكرر، تأتينا الفرص دائماً ونضيعها عندما نُغلق على نفسنا وتفكيرنا ونقبع في الظلام ولا ننظر إلى الآفاق البعيدة، الحياة مليئة بالجواهر نحن نضيعها، نرمي جواهرنا لأننا لا نعرف ماهيتها، نظنها قطع زجاج مزيفة لعدم معرفتنا بقيمتها، فظلام جهلنا يحول دون وضوح الرؤية.

منذ البداية كل الفلسفات القديمة لم تنفصل في وجودها عن الوجود الاجتماعي، وعن كل ما يقلق الإنسان. آراء كثيرة حول موضوع السعادة، ومعظمها متشابهة، فهناك تقارب إلى حد كبير بين هذه الآراء. ومن المؤكد أن جميع البشر سواء منهم الأذكياء أو الجهلة كلهم يحلمون بالسعادة. ولكن الفرق في تحديد معايير السعادة، وظروفها، ومتطلباتها. مثلاً المريض تتحقق سعادته بالشفاء، وتتحقق سعادة الفقير ببعض المقتنيات التي ربما لا تعني أي قيمة بالنسبة للغني، والمبدع يبتهج عندما ينتهي من إنتاج أحد أعماله. وكل إنسان حسب رأي الحكماء قادر على نيل السعادة إذا حكم عقله، وابتعد عن الغرائز، وتمسك بالفضيلة.

"والكل إجماع على أن محاسن الأخلاق لا تأتي إلا من طريق الفضيلة، وأن سعادة الحياة لا تنال إلا برياضة النفس عليها، حتى تصير فيها ملكة، ولكن من سؤ حظ الإنسان أنه تزحزح عنها واشتغل بالباطل في اجتماعه، وغفل عن حقيقة سعادته، وضل طريقها، وظل يبحث عنها من غير وجودها، وينشدها ولا يدركها، إذ خرجت النفوس عن أطوارها، وتسللت من غرائزها، فأصيبت بالأمراض المختلفة من الأهواء والأطماع والآمال والأماني، فكان لا بد للإنسان من معالجة

نفسه بأن يرتد إلى حكم الطبيعة، وأن يبحث ويفكر ويحكم عقله، ويشحذ إرادته ويُغلب القوة الحاكمة على القوة الواهمة، ويكشف بنور الحقيقة ظلمات الجهل والوهم، ويروض نفسه على أحكام الفضيلة، فلا يشحن نفسه بالرغبات ولا يتركها للجزع والفزع، ولا يعرضها للوسواس والهواجس، وأن يعودها ألا تعتبر كل هذه المطالب الطويلة العريضة التي تشغل أطماع الناس، فالذي يتعين علينا هو أن نرفع عن النفس أوهامها وأباطيلها، وأن نبين لها حقيقة الأشياء، وأن نرفع عنها غشاء الأهواء، وندفع عنها عدوان الرغبات والشهوات"[51].

أما الحياة المثلى والمخرج من مأزق الحياة البائسة في نظر كونفوشيوس تبدأ من الفرد لتشمل كل الإمبراطورية: " القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل قد بدؤوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولما أرادوا أن يُحسنوا تنظيم ولاياتهم بدؤوا بتنظيم أسرهم، ولما بدؤوا تنظيم أسرهم، بدؤوا بتهذيب نفوسهم، فلما أرادوا أن يهذبوا أنفسهم بدؤوا بتطهير قلوبهم، ولما أرادوا تطهير قلوبهم، عملوا على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدؤوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع، وهذا التوسع بالمعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء، فلما بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملاً، ولما كان علمهم كاملاً خلصت أفكارهم، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم، ولما تطهرت قلوبهم تهذبت نفوسهم،ولما تهذبت نفوسهم، انتظمت شؤون أسرتهم، ولما انتظمت شؤون أسرتهم صلح حكم ولايتهم، ولما صلح حكم ولايتهم، أصبحت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة."[52]

كونفوشيوس يُصر على ضرورة التربية العامة الشاملة، عن طريق الالتزام الأخلاقي، لا عن طريق العقاب، فالعقاب قد يضطر الناس مؤقتاً أن يفعلوا ما ينبغي عليهم أن يفعلوه، ولكن العقاب في أحسن حالاته بديل سقيم لا يمكن

---

[51]- الأخلاق النظرية 31.

[52]- تيارات الفلسفة الشرقية ص 66 .

الاعتماد عليه. ويقول: لو حاول كل فرد أن يُرشد الناس عن طريق القوة والقوانين ويحافظ على النظام عن طريق فرض العقوبات، فسيسعى الناس لتجنب العقوبات فحسب دون أن يكون عندهم إدراك للالتزام الأخلاقي، ولكن لو أنهم التزموا بالفضيلة فلن يخطئوا، وبالتالي ستكون حياتهم هادئة.

وعن إمكانية تحقيق السعادة سأل راما: – وهو قديس هندوسي كانت تنتابه الشكوك والهواجس حول إمكانية وجود سعادة– " لقد جربنا مراراً وتكراراً أنه لا يمكن أن تنتظر سعادة حقيقية دائمة من حياتنا هذه، لقد تيقنا ذلك ولا نرتاب فيه، ومع هذا يسوقنا الهوى إلى أن نأمل من هذه الحياة كل سعادة. إن اكتناز الثروة لا يجعلنا سعداء، بل كثيراً ما يجرنا إلى الشقاء، وليست الحياة إلا سحابة صيف تمر سريعاً، أو كنور سراج فقد زيته، ومع هذا فرغبتنا فيها دائمة، لا تشبع أبداً ولا تقنع بما في اليد، وكلما ازدادت من شبعها ازداد جوعها وطموحها، وليس في العالم شراً أكبر من الرغبة، إنها تجر حتى أعقل الناس إلى الفتنة، ولا خير في الجسد لأنه محل العاهات ووعاء لسائر الآلام، وهو سائر إلى الانحلال، واتصفت الطفولة بالضعف والعجز وعدم القدرة على الكلام، والتحرر من العلم وقلة الحيلة، ويا تُرى ماذا يجود علينا ذلك الزمن الذي نسميه الشباب؟ وهل الشباب إلا كومضة برق تختطف أبصارنا ثم لا تلبث أن تختفي، وتجيء بعدها الشيخوخة بآلامها القاسية... تتراءى النساء جميلات فاتنات لحين من الزمن فقط... فيا تُرى ما الفائدة من الحياة التي لا مناص فيها من الشيخوخة والموت؟ لا مفر لإنسان من الشيخوخة، إنها تصرع حتى الأبطال الذين لا يعرفون الهزيمة قط في ساحة الميدان، وتلحق حتى الذين يختفون خوفاً منها في الكهوف. وما قيمة الحسد والأفراح والثروة والجاه والمُلك إن كان محتماً علينا أن نموت عاجلاً أو آجلاً، وأن يقضي الموت على كل شيء؟ إن جميع الروابط والعلاقات سلاسل من الأسر والعبودية، والمسرات كلها أمراض فتاكة، كل إنسان تخدعه نفسه ثم تسوقه إلى شراك الأهواء والرغبات". وعن هذه الأسئلة أجابه أستاذه فقال: "إن علة كل هذه

المصائب هي (تريسنا) أي الرغبة في المآرب الدنيوية، إن هذه الرغبة تلدغ صاحبها كالحية السامة الفتاكة، وتقطع كالسيف، وتنفذ كالرمح، وتحرق كالنار، وتطحن كالرحى، ونحن نفتتن بالحياة لأننا نجهل فطرتنا الحقيقية وماهية الدنيا، فالجهل هو علة العلل لسائر الآلام، إن منبع كل الشرور هو قلة العلم، وأحسن دواء هو الوصول إلى الحكمة، فالحكمة هي الجسر الذي يجتاز عليه المرء بسلام بحر هذا العالم، وتنال الحكمة بالسعي والجهد، لأن العلم لا ينزل علينا بنفسه، فالسعي والجد هما الأساس، وليس هناك شيء من الحظ أو القضاء والقدر، فنحن الذين نخلق حظنا بمجهودنا، وليس من سبيل يجنب الشقاء والتخلص منه إلا بسعينا وجهودنا، فالذين يتكلمون عن القضاء والقدر ولا يسعون بأنفسهم هم أعداء أنفسهم، وهم الجهلة والكسالى، الحظ اسم لشيء لا وجود له إلا في أوهام العجزة البله، فإذا كان هناك شيء يصح أن يسمى الحظ فذلك الشيء هو أعمالنا الماضية، من أجل هذا يجب على كل واحد أن يسعى بعزم ثابت ليحقق ما يريد.
وأول ما يطالب به الطالب الباحث عن الحق أو الراغب في تحرير نفسه من انحلال العبودية يتلخص في كلمات أربع هي: الطمأنينة، والقناعة، وملازمة الحكماء، والتأمل العميق. ومعنى الطمأنينة أن يصفو قلب المرء من الكدر، ومعنى القناعة ألا يرغب في شيء وألا يعادي شيئاً، فالحكمة لا تنزل على العقل الذي استعبدته الأهواء والرغبات، ومصاحبة الحكماء تزيل الظلمات من القلب، والتأمل العميق هو الوسيلة للحق. ويعرف الشخص الذي تجمعت فيه هذه الصفات بأن يصبح في حال السرور يسره، والألم لا يحزنه، ولا يتأثر قلبه بالرغبة أو الكره، وإنه على رغم انهماكه الظاهر في الأعمال الدنيوية لا يتعلق عقله بشيء من الدنيا ولا يؤذي سلوكه أحداً، يكون صديقاً للجميع، ترى ظاهره مشغولاً ولكن باطنه في الحقيقة مطمئن تمام الاطمئنان، تحرر من جميع قيود الطبقات، والتقاليد والعادات، لا يعمل عملاً للنفع الذاتي، صدره منشرح والبشاشة لا تفارق وجهه، يعامل سائر الناس بالحسنى، لا يشعر باليأس ولا بالكبر، ولا بالاضطراب

الفكري ولا بالسرور المفرط، كله عطف وحنان وحب، لا يحتقر السرور ولا يجري للحصول عليه، يشعر بالابتهاج في جميع أحواله، حتى في شيخوخته وعجزه وموته، فحياة الشخص المتحرر أنبل حياة وأشرفها، والناس يفرحون برؤيته وسماع صوته".[53]

وعند البوذيين هناك ما يسمى "النرفانا" أي القضاء على الأنانية والتحرر من الهوى وسلطان النفس.

كان بوذا عدو التعصب والغضب والطيش، ويقال أنه لم يعرف الغضب والسخط أو الكلام الجارح القاسي، وكان يرى أن سبب التعصب أو التهور هو الجهل وليس الشر. ومن أهم أفكار بوذا أنه اعتبر الشهوة نار وكذلك العداء والهوى، و الحواس هي التي تشعل هذه النار، ولكي تتخلى الحواس عن هذه الشهوات يجب تطهير الذهن من الأنانية واقتلاع الشهوة من القلب، فالهوى هو أصل الألم، والنفس هي التي تجلب الشقاء، فكل شقاء الإنسان وضجره ينبعث من رغبات النفس، وعندما يمتلك الإنسان البصيرة والحكمة يمكنه التغلب على رغباته ويصل إلى مرحلة النرفانا، أي إلى أعلى درجات الصفاء، بتطهير النفس من الرغبات المادية التي تسبب إذلال الإنسان وتحقيره. رسالة بوذا هي التحرر من كل مادي ثقيل والتخلص من كل فكر عقيم لا فائدة من الاشتغال به. وكان يؤثر الصمت على الخوض في أمور ما ورائية لا يمكن معرفتها كان يقول لأتباعه "فكروا هكذا: هذا ألم، هذا مصدر ألم، هذا إعدام الألم، هذا سبيل إعدام الألم".

كونفوشيوس طرح أفكاراً عديدة لإصلاح العالم أولها التطور والتثقيف عقلياً وأخلاقياً لتوسيع المدارك وتقويتها وتنظيمها. الأعراف مهمة لتأمين النظام والأمان، فإذا خالف الإنسان الأعراف متى شاء لصار العالم مكاناً من الصعب

[53]- أديان الهند الكبرى ص 90 – 92 .

العيش فيه. ووضع كونفوشيوس طريقاً لسعادة الإنسان واهتم بالكيف دون الكم، فمقياس حياة الإنسان ليس طول عمره بل كيف كان نصيبها من الصلاح. وعلى الإنسان أن يسمع الكثير ويترك جانباً المشكوك فيه، وأن يرى الكثير وينتقي ما هو الجيد ليتبعه. والناس سواء ومهما اختلفوا في تعريف السعادة فهم يطلبونها. وما دامت السعادة هي الخير يجب علينا أن نتخذ موقفاً لجلب السعادة. ولهذا كانت فكرة الأخذ والعطاء من أهم الأفكار عنده: "لا تفعل بالغير ما لا يريد المرء أن يفعلوه به". أو "الرجل الفاضل حقاً هو من يريد في تثبيت أقدام الناس كما يرغب في تثبيت قدميه". يريد لنفسه النجاح ويكافح ليساعد الآخرين لينجحوا. ويجد في أمنيات قلبه المبدأ لسلوكه تجاه الغير في منهج من الفضيلة الحقيقية. الحكمة هي معرفة الناس، والفضيلة هي حب الناس".[54]

ومن أقواله أيضاً: السعادة تسود المجتمع إذا سلك كل فرد سلوكاً صحيحاً. يعني أن يعرف كل فرد دوره الطبيعي الذي وضع فيه. يجب أن أحب دوري، أن أتوافق مع مهنتي، مع بيئتي، مع أسرتي، وأقتنع فالقناعة كنز أكثر من أي كنز آخر. واستطاع كونفوشيوس أن يغير اهتمام الناس بالسحر والفأل الحسن إلى الاهتمام بالصواب والخطأ. فكانت تعاليمه تجسيداً للمثل العليا والفضيلة، وبغير الفضيلة لا توجد سعادة.

أبيقور يعتبر أن الأخلاق هي التي تجعل الإنسان سعيداً في حياته والأخلاق هي التي تحدد ماهية اللذة الجسمانية يقول:" إن الطبيعة بفضلها وعطفها علينا قد وضعت في أيدينا كل الوسائل ومهدت لنا كل الطرق للوصول إلى تلك السعادة، وجماع الأمر كله في هذا الطريق، أن نميز بين الرغبات التي تدور في صدورنا ونعرف ما هو طبيعي ضروري، كالرغبة في أصناف الأطعمة وألوانها مثلاً، وما هو ليس بطبيعي ولا بضروري، مثل فضول العيش وكمالياته، فإذا عالجنا النفس

[54]- الفكر الصيني ص 62 .

للتخلص من أسر الرغبات في القسمين الأخيرين، سهل علينا الوصول إلى منتهى طريق السعادة، لأن الجوع والعطش هما الشيئان الطبيعيان دون غيرهما، ومن ذا الذي يعجز أن يجد كسرة من الخبز أو جرعة من الماء فالقناعة والزهد والتقشف وراحة البال هي الغاية."[55] المقصود أن اللذات تُفضي إلى الآلام، وتكاليفها باهظة، الإنسان المعتدل يتخذ موقفاً وسطاً ويأخذ من الأشياء التي تفيده ولا تسبب ألماً إذا فقدها.

عندما نحصل على ما يكفينا من الغذاء والكساء والسكن لماذا سنُرهق نفسنا ونصرف وقتنا في المزيد من ساعات العمل المرهق، من أجل الإنفاق على الكماليات فقط! ولماذا لا نستفيد من الوقت للتعلم أو للهوايات المفيدة أو للتنزه في الطبيعة...

أبيقور يشدد على ضرورة الموعظة الحسنة للتخلص من المشاكل، وعلم الأخلاق هو أفضل العلوم وأكثرها فائدة: "وما ينفع الإنسان من تلك القياسات والمغالطات في شفاء النفس من رذائلها، وتحليتها بفضائلها؟ ولعمري لو أنك جئت بألف عالم من علماء المنطق، وجئت أمامهم مثلاً بهذا الذي يعضه الفقر بنابه، وهذا الذي يُقَدم للقتل بين النطع والسيف، وهذا الذي يشكو ويئن وهو تحت أثقال الذهب التي ابتزها بطرق الخيانة والنذالة واكتنزها بحبائل الغش والخداع، وهذا الذي يهاب الخطوب ويفزع من الكوارث، وهذا الذي أضناه الملل والسأم وهو في سعة من جاهه وماله، وهذا المريض، وهذا الجريح، وهذا الأسير، وتلك الثكلى، ثم أخذوا ينثرون عليهم ما في كتبهم من الجدل والسفسطة التي قضوا العمر في طلبها، وينفثون ما في صدورهم من القضايا، أكان ذلك ينفعهم في شيء؟ أكان يشفيهم من دائهم، ويسكن من أوجاعهم، فينقلب البائس وقد انفرج بؤسه، والحزين وقد سرى همه، والمحتاج وقد خف عنه عبء فقره، والمعذب وقد قويت عزيمته على احتمال عذابه، والخائف وقد ذهب عنه روعه، والغني وقد علم أن الغنى غنى

[55]- أنظر قضية الفلسفة ص 29.

النفس لا غنى المال؟... وماذا يُفيد الناس في هذه المواقف غير الموعظة الحسنة، ما يقشع عنه ظلمات ما هم فيه من الأحزان، ويكشف لهم عن حقائق الأشياء في هذه الحياة، ويبين لهم ما هو الضروري من العيش، وما هي الفضول والزوائد التي أورثت الإنسان أنواع البلاء والشقاء".[56]

[56]- قضية الفلسفة ص 30.